

extrait
شانتال بورتيلو
غاندي
لا
لِلعُنف
سمير

غاندي:
«لا لِلعُنف»

Gandhi : « Non à la violence » © Actes Sud, France, 2009
تُرجِم إلى اللّغة العربيّة لدى سمير دار نشر
حقوق التّرجمة © سمير دار نشر 2016
سنّ الفيل الجسر الواطي، ص.ب. 55542، بيروت، لبنان
www.samirediteur.com
ISBN 978-9953-31-862-2

الَّذينَ قالوا لا

شانتال پورتيلّو

غاندي

لا لِلعُنف

سمير

إلى ابن عُمَر مُحَمَّد صالِح، رَجُلِ السَّلامِ وَالدّيمُقراطِيَّةِ، الَّذي تَجَرَّأَ عَلى أَن يَقولَ لا لِلدِّكتاتورِيَّةِ. كانَ زَعيمَ المُعارَضَةِ الدّيمُقراطِيَّةِ في تْشاد. وَعَلى مَرأًى مِن زَوجَتِهِ وَابنِهِ الصَّغيرِ، في بَيتِهِ، في نْجامينا، ضَرَبَهُ جُنودٌ تْشادِيّونَ وَاختَطَفوهُ، فَاختَفى مُنذُ ذلِكَ الحينِ. وَقَبلَ اختِطافِهِ، كانَت آخِرُ رِسالَةٍ وَصَلَت مِنهُ لِلتَّهنِئَةِ بِالعامِ الجَديدِ:

«السَّلامَ في العالَمِ، السَّلامَ في تْشاد».

حَيثُما كانَ، عَسى أَن يُعَبِّرَ لَهُ هذا النَّصُّ عَنِ احتِرامي وَصَداقَتي.

«أَعرِفُ أَنَّني أَحيا، أَعرِفُ أَنَّني أُؤمِنُ وَأَنَّ لا جَبَلَ وَلا بَحرَ وَلا غابَةَ وَلا شَيءَ، مَهما عَلا أَو قَسا، قَد يُغَيِّرُ وَعدي.

فَهَل يَكونُ المَوتُ؟ سَوفَ نَرى...»

زِفير نِچْريتا

١

كانَ هُناكَ ذاكَ الصَّوتُ النّاعِمُ المُنتَظِمُ الَّذي يَجعَلُني أُغمِضُ عَينَيَّ، وَأَنا في القِسمِ الأَخيرِ مِنَ المَنزِلِ، قُربَ الحَوضِ... إِنَّهُ صَوتُ انسِيابِ الحَريرِ مُتَأَرجِحًا عَلى طولِ ذِراعِها، عِندَما تَغمِسُ مُشطَها في زَيتِ الياسَمينِ، فَتُسمَعُ طَرقَةٌ ناعِمَةٌ، هِيَ صَوتُ مُلامَسَةِ المُشطِ حافَةَ القَصعَةِ، وَبِدونِ أَن توقِعَ نُقطَةَ زَيتٍ واحِدَةً، تَرفَعُ المُشطَ إِلى جَبينِها وَتَترُكُهُ يَنسابُ بِهُدوءٍ، بِهُدوءٍ بالِغٍ، عَلى طولِ شَعرِها المَفروقِ

وَالـمُنسَدِلِ حَتّى الكاحِلَينِ. كانَت تَتَأَلَّقُ بِبَريقٍ أَزرَقَ وَهّاجٍ، وَعِطرُ الياسَمينِ يَخُطُّ كُلَّ حَرَكَةٍ مِن حَرَكاتِها، مِنِ احتِكاكِ ساريها بِالبَلاطِ إلى يَدِها الَّتي تُبقيها طَويلًا عَلى رَأسي عِندَما تُريدُ منّي وَعدًا بِالِانتِباهِ، بِعَدَمِ تَناوُلِ اللُّحومِ، بِعَدَمِ الِاقتِرابِ كَثيرًا مِنَ النِّساءِ، بِاحتِرامِ مَن يُحيطونَ بي، وَبِإكرامِ راما... بِأَن أَكونَ ابنًا حَقيقِيًّا. كُنْتُ الأَصغَرَ بَينَ الأَولادِ، وَلَم تَكُنْ أُمّي پْتْليباي التَّقِيَّةُ، الطَّيِّبَةُ مُتَقَدِّمَةً كَثيرًا في السِّنِّ. في ذلِكَ الوَقتِ، كُنّا نَشعُرُ بِأَنَّنا مُنعَزِلَينِ في البَيتِ الكَبيرِ، حَيثُ تَتَجَمَّعُ العَشيرَةُ كُلُّها: عَلى الأَقَلِّ سِتُّ أَو سَبعُ عائِلاتٍ مَعَ الأَولادِ، وَالخَدَمِ، وَالأَصدِقاءِ، وَالزُّوّارِ مِنَ الأَقارِبِ. وَإِذا كانَ الصِّياحُ الـمُتَواتِرُ جُزءًا مِن طُفولَتي، فَإِنَّ الهُدوءَ كانَ مُرتَبِطًا بِتِلكَ اللَّحظَةِ، بِتِلكَ الحَرَكَةِ الَّتي تَأتيها أُمّي.

وَكَم يُعاوِدُني ذاكَ الهُدوءُ نَفسُهُ، حَتّى بَينَ هذِهِ الجُدرانِ القاتِمَةِ الَّتي تَتَصاعَدُ مِنها الرُّطوبَةُ مَعَ نَفحَةٍ مِنَ الياسَمينِ وَأَنا أَقومُ بِالحَرَكَةِ المَوروثَةِ الَّتي

تَعَلَّمْتُها مُتَأَخِّرًا، وَالَّتي بِها أُديرُ مِقبَضَ **الشّارْكْها** (عَجَلَةِ الغَزلِ)، لِيَكُرَّ القُطنُ الهِندِيُّ. لَم يَترُكوا لي إلّا **الدّهوتي** (رِدائي) **وَالشّارْكْها**، عَجَلَةَ الغَزلِ العَتيقَةَ. وَلكِنَّني بِحَرَكَةِ اليَدِ هذِهِ، رَجُلٌ وَصَبِيٌّ وَامرَأَةٌ يُريدونَ إعادَةَ إحياءِ أَرضِنا، أَرضِ الطِّيبَةِ. الهِندُ جِسمٌ كَبيرٌ خَصبٌ زُرِعَت فيهِ لُغاتٌ كَثيرَةٌ، وَأَعراقٌ كَثيرَةٌ، وَدِياناتٌ كَثيرَةٌ... وَهيَ غَنِيَّةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ، بِقَدرِ الطُّرُقِ المُتاحَةِ لِلوُصولِ إلى الجَوهَرِ. وَلكِن، كَيفَ أَجعَلُها تَتَعايَشُ بِاحتِرامٍ؟ أَشُكُّ في قَدرَتي عَلى ذلِكَ أَحيانًا، فَأَضطَرِبُ مِنَ الخَوفِ لِلَحظَةٍ، أَو لِلَيالٍ كامِلَةٍ. وَلكِنَّني في قَرارَةِ نَفسي أَعرِفُ أَنَّني سَأَنجَحُ. فَهذا ما أُريدُهُ، لا بَل ما يَتَوَجَّبُ عَلَيَّ. وَحدَهُ الحُبُّ قادِرٌ عَلى ذلِكَ. وَلكِن، هَل أَنا قادِرٌ عَلى مُقاوَمَةِ نَزعَةِ العُنفِ لَدَيَّ كَإنسانٍ؟ هَل أَنا قادِرٌ عَلى الحُبِّ بِما يَكفي؟

كانَ شابٌّ يُدعى أُوكا، يَأتي بِانتِظامٍ إلى بَيتِنا لِيُنَظِّفَ المَراحيضَ. وَهوَ طَويلُ القامَةِ، ذو عَينَينِ بَرّاقَتَينِ، دائِمُ الاِبتِسامِ وَطَلَقُ اللِّسانِ. لَقَد أُعجِبْتُ

بِهِ، فَكُنْتُ أُراقِبُهُ وَأُحِبُّ قِصَصَهُ، وَغالِبًا ما أَجلِسُ لِلِاستِماعِ إِلَيهِ، أَو أَحمِلُ دَلوَهُ وَمَكانِسَهُ، عَلى الرَّغمِ مِن رَفضِهِ المَمزوجِ بِالخَوفِ، لِأُنَظِّفَ زاوِيَةً. كانَ مَجيئُهُ يُنيرُ نَهاري. وَذاتَ يَومٍ، سَأَلْتُ والِدَتي لِماذا يُمنَعُ لَمسُهُ، فَهَزَّت رَأسَها وَخَفَضَت عَينَيها وَهَمَسَت:

- هُوَ لَيسَ مِن طَبَقَتِنا، إِنَّهُ مِنَ المَنبوذينَ!

وَذَكَّرَتني بِضَرورَةِ الِاغتِسالِ الِاعتِيادِيِّ بَعدَ أَيِّ احتِكاكٍ بِهِ، وَهذا ما فَعَلْتُهُ، بِدونِ أَن تُقنِعَني شُروحُها. لَم أَستَطِعْ أَن أَنامَ. وَفي الصَّباحِ الباكِرِ، أَيقَظَني وَقعُ قَدَمَيهِ عَلى الرَّغمِ مِن تَعَبي الشَّديدِ. وَعِندَما مَرَّ بِبابي، فَتَحْتُهُ وَارتَمَيْتُ بَينَ ذِراعَيهِ، فَأَطبَقَهُما عَفوِيًّا عَلَيَّ وَقالَ لي:

- لا، لا، أَيُّها الصَّغيرُ موهانداس، لا، هذا لَيسَ جَيِّدًا، لَيسَ جَيِّدًا، أَنتَ مِن جَماعَةِ غاندي، مِن طَبَقَةِ **فيسِيا**، مِنَ التُّجّارِ، وَأَنا مِنَ المَنبوذينَ، مِن خارِجِ طَبَقَتِكَ. عَلَيكَ أَن تَغتَسِلَ الآنَ.

- أَتَرى؟ لَم أَمُتْ، فَذِراعاكَ عَطوفَتانِ. أُوكا، أَتُريدُ أَن تُصبِحَ صَديقي؟

تَحَرَّكَت جَوزَةُ عُنُقِهِ صُعودًا وَنُزولًا وَدَمَعَت عَيناهُ، ثُمَّ أَجابَني بِصَوتٍ مُتَقَطِّعٍ:

- هذا غَيرُ مُمكِنٍ، غَيرُ مُمكِنٍ، يا صَغيرُ...

تَأَثَّرْتُ مِثلَهُ بِالمَوقِفِ، وَدَمَعَت عَيناي، وَلكِنَّني قاطَعْتُهُ مُصِرًّا عَلى السُّؤالِ:

- هَل تُريدُ ذلِكَ؟

فَهَزَّ رَأسَهُ وَهَمَسَ:

- شُكرًا.

- عِندَما أَكبَرُ، لَن يَعودَ هُناكَ طَبَقاتٌ، وَسَتَكونُ صَديقِيَ الدّائِمَ.

لَقَد تَسَبَّبَتِ الطَّريقَةُ الَّتي كانَ أُوكا يُعامَلُ بِها (وَهوَ لا يَكادُ يَكبُرُني بِبِضعِ سَنَواتٍ) في أَوَّلِ إدراكٍ مُهِمٍّ في حَياتي، في أَوَّلِ تَمَرُّدٍ لي. وَجَدْتُ أَنَّ أُمّي مُخطِئَةٌ، وَأَنَّ نِظامَ الطَّبَقاتِ في الهِندِ غَيرُ عادِلٍ. لَم أَنسَ قَطُّ هذا النِّظامَ، كَما لَم أَنسَ أُوكا، صَديقي. إنَّهُ ابنُ اللّهِ، مِثلي تَمامًا. في ذلِكَ اليَومِ، قَرَّرْتُ تَنظيفَ المَراحيضِ وَالقِيامَ بِكُلِّ الأَعمالِ الَّتي كانَت تُسنَدُ إلى أَكثَرِ النّاسِ

حِرمانًا. لا تُدَنِّسُ الأَعمالُ، وَلَو وَضيعَةً، أَيَّ إنسانٍ. أَستَطيعُ إذًا القِيامَ بِها. لَقَد كانَ المَنبوذونَ، عَلى الرَّغمِ مِن مُعارَضَةِ الجَميعِ، أَوائِلَ نُزَلاءِ **الأَشرَمِ**، ذلِكَ المَأوى الَّذي أَوجَدْتُهُ في جَنوبِ أَفريقِيا، وَتِلكَ البُقعَةِ الأُولى لِلأُخُوَّةِ الَّتي كانَت عَلى صورَةِ الهِندِ.

إنَّ نَظرَةَ أُوكا المُشِعَّةَ بِالحَياةِ عَلى الرَّغمِ مِن وَضعِهِ، نَظرَةَ الوَقارِ الجَميلَةَ، هِيَ الَّتي تَمنَحُني الدِّفءَ في هذِهِ الزِّنزانَةِ. النّورُ ضَعيفٌ، إنَّهُ نورٌ سَجينٌ. نَحنُ اليَومَ في الخامِسِ مِن نَيسانَ (أَبريلَ) 1930، وَمَرَّةً أُخرى، أَنا في السِّجنِ. مَرَّةً أُخرى... وَبِالتَّأكيدِ، لَيسَتِ الأَخيرَةَ... في سِجنِ يِراڤْدا. وَهذِهِ المَرَّةَ بِسَبَبِ مَسيرَتِنا الطَّويلَةِ، **مَسيرَةِ المِلحِ**. أَخَذَني الحُرّاسُ وَدَفَعوني بِغَيرِ عُنفٍ يُذكَرُ، فَتَبِعْتُهُم دونَ اعتِراضٍ، وَأَنا أَبتَسِمُ لَهُم. اللّاعُنفُ لَيسَ خُضوعًا، إنَّهُ يَضَعُ كُلَّ ما عِندَ فَردٍ ما أَو شَعبٍ ما مِن قُوَّةٍ روحِيَّةٍ، في مُواجَهَةِ إرادَةٍ طاغِيَةٍ. نَبتَسِمُ، وَنُحافِظُ عَلى هُدوئِنا وَلا نَخضَعُ، بَل نُقاوِمُ. المُقاوَمَةُ الهادِئَةُ هِيَ إجراءٌ. فَنَحنُ نَبدو

وَكَأَنَّنا نَنحَني، وَلكِنَّنا لا نُطيعُ القَراراتِ الظّالِمَةَ الَّتي لا تَأخُذُ بِعَينِ الاِعتِبارِ كَرامَةَ شَعبٍ. العِصيانُ المَدَنِيُّ ضِدَّ الظُّلمِ، هُوَ قُوَّةٌ أُخرى. لَمّا يَفهَمِ الإنكليزُ بَعدُ أَنَّ المُقاوَمَةَ وَالعِصيانَ هُما قُوَّةُ الحَقِّ.

أَعادَ الحُرّاسُ إقفالَ البابِ. الزِّنزانَةُ رَمادِيَّةٌ، وَلكِنَّها نَظيفَةٌ بِما يَكفي، وَلَها قَضيبٌ واحِدٌ عَريضٌ. وَعَلى الحائِطِ المُقابِلِ تَتَعَرَّشُ نَبتَةٌ مَعَ أَنَّها هَزيلَةٌ. لا أَدري مَن زَرَعَها في يَومِ أَمَلٍ. إنَّها تَرفَعُ أَمَلَهُ نَحوَ السَّماءِ، مُباشَرَةً مِن عَلى الحائِطِ القَذِرِ.

مَضى نَهارٌ، ثُمَّ لَيلَةٌ، وَأَتى نَهارٌ آخَرُ. لَم أَتَوَقَّفْ عَنِ التَّحديقِ إلى النُّجومِ مُفَكِّرًا في مَسيرَتِنا: 350 كيلومِترًا. تَوافَدَ المُزارِعونَ مِن كُلِّ حَدَبٍ وَصَوبٍ. مَشَيْنا جَنبًا إلى جَنبٍ بِهُدوءٍ، حَسْبَ إيقاعِنا. أَحاطَ بِنا الجُنودُ الَّذينَ كانوا يَتبَعونَنا، بِدونِ أَن يَغضَبَ أَحَدٌ. لَقَد جَعَلونا نَمشي عَلى جانِبِ الطَّريقِ، بِاتِّجاهِ الهُوَّةِ. تَمَزَّقَ **الدّهوتي** (رِدائي) وَسطَ التَّزاحُمِ، وَلكِن، ما هَمَّ، فَلَقَدِ احتَفَظْتُ، مُكتَسِيًا هذا الإزارَ الَّذي نَسَجْتُهُ،

طُبِع هذا الكتاب لدى مطابع دار الكتب-دوتس في بيروت،
في كانون الثّاني (يناير) 2016

الَّذينَ قالوا لا

رِوايـاتٌ تـاريخِـيّــة

أَمامَ الدُّفعَةِ الأَخيرَةِ مِنَ الرِّجالِ الَّذينَ تابَعوا المَسيرَةَ، مَكشوفي الوُجوهِ، تَوَقَّفَ الجُنودُ عَن إطلاقِ النّارِ.

لَقَدِ افتَرَشْنا الأَرضَ وَكُنّا بِالمِئاتِ، ثُمَّ بِالآلافِ. حَثَّ الفُرسانُ جِيادَهُم عَلى التَّقَدُّمِ وَلكِنَّها لَم تُذعِنْ، بَل تَوَقَّفَت عَلى بِضعِ خَطَواتٍ مِنّا. لا بَأسَ إن مُتْنا، فَسَيَقِفُ آخَرونَ وَقَلبُهُم يَنبِضُ بِالإيمانِ. لَقَد خَسِرَ الإنكليزُ. لَمّا يُدرِكوا ذلِكَ بَعدُ، وَلكِنَّهُم خَسِروا... سَيَتَذَوَّقُ أَهلُ الهِندِ مِلحَهُم.

ماذا في وُسعِ قُضبانِ السِّجنِ أَن تَفعَلَ لِمُواجَهَةِ البَحرِ؟

www.samirediteur.com

ISBN 978-9953-31-862-2